مجلة العلوم العربية والإنسانية، جامعة القصيم، المجلد (٢)، العدد (١)، ص ص ١-٢٥، بالعربية (محرم ١٤٣٠هـ/يناير ٢٠٠٩م)

الإعجاز اللغوي في ألفاظ الترادف من القرآن الكريم
دراسة تطبيقية في لفظتي (الشك، والريب)

علي بن عبدالله الراجحي
أستاذ اللغويات المساعد في قسم اللغة العربية، جامعة القصيم
Ali-Arj@hotmail.com

(قدم للنشر ١٤٢٨/١١/٢٨هـ؛ وقبل للنشر ١٤٢٩/٣/٧هـ)

ملخص البحث. هذا البحث يتناول جانباً من جوانب إحدى ظواهر العربية على المستوى الدلالي تلكم هي ظاهرة الترادف اللغوي في القرآن الكريم من خلال لفظتين هما " الشك " ، و " الريب " ، ليدلل بهما على شيء من الإعجاز اللغوي الذي هو أحد إعجازاته ، بل هو لب ما تحدى الله به أهل الفصاحة والبلاغة فالمتدبر لنظم القرآن الكريم ، الفاقه لأسراره ومغازيه ، المستلهم روح الإعجاز فيه ، يلمس إعجازه اللغوي في مادة الكلمة القرآنية لفظاً ودلالة ، فحسن التأني لفقه حقيقة الإعجاز يؤكد أن الإعجاز الأساسي هو الإعجاز اللغوي ، ومن مفردات منظومة هذا الإعجاز: الإعجاز باصطفاء المفردات لابتناء التراكيب ، وهو ما يلتقي وقضية الترادف على صعيد واحد ، فلغة القرآن الكريم خارقة للعادات اللغوية كلها ، وهذا هو مفهوم الإعجاز ، فربما وقف المرء أمام لفظة القرآن ، فدفعه وهمه ، وتسامحه في فقه الدلالات الخاصة إلى توهم الترادف بين عدد من الألفاظ ، لذا جاء هذا البحث ليجلي هذه الحقيقة ، ويزيل هذه الرؤية القاصرة ، ويدفع هذا التوهم ، فبالتأمل الهادي ، وتسمع همسات الصوامت ، ولمح ظلال كل لفظة ، وإيحاءاتها ، واستصحاب السياق ، وفقه سبب النزول ، والتزود من علم المناسبات وغير ذلك من الضمائم التي يتوجب ارتفاقها في فقه البيان القرآني ، يتجلى للمرء أنه لو دار على المعجم اللغوي كله يتلمس بديلاً للفظة القرآنية في موقعها المعين فإنه من المستحيل أن يظفر بطلبته على الإطلاق.

بين يدي الموضوع

الحمد لله الذي جعل في لغة العرب من الأسرار واللطائف الدالة على بديع الصنع ، وعظيم الاقتدار ، ما تنبهر وتتميز عند الوقوف على حقائقه العقول ، والصلاة والسلام على من بعثه الله من أكرم جيل ، وأشرف قبيل ، بأفصح لسان ، وأوضح بيان.. أما بعد ؛

ففي آفاق اللغة العربية تشرق ظواهر عديدة ، على مستوى النظم اللغوية الأربعة الصوتي ، والصرفي ، والنحوي ، والدلالي ، ومن أبرز ظواهر اللغة العربية على المستوى الدلالي ظاهرة الترادف اللغوي ، تلك التي استلفتتني و يدور هذا الموضوع حولها ؛ لما تتمتع به هذه الظاهرة من أهمية ، ولسطوعها البارز القوي في دنيا لغتنا العربية ، انبعثت الدراسات حولها ، ونشطت اليراعات في ساحها ، تجسد جهود العلماء حيالها قداماهم ، والمحدثين.

ذلك واقع علمي يقرره ما تزخر به المكتبة العربية والإسلامية من رصائد بحثية ، ومنجزات معرفية (تدور) حول هاتيك الظاهرة.

لقد أسهم كثير من سدنة العربية ، وعلماء الأصول ، والمفسرين قديماً وحديثاً ، وأدلى كل منهم بدلوه في دراسة هذه الظاهرة ، على اختلاف توجهاتهم ، وتطاول عصورهم ، وتنوع مشاربهم ، وكل كانت له منطلقاته ، ومسيرته البحثية ، وتوجهاته ، وضوابطه ، كما كانت لكلٍّ نتائجه ، التي حظيت عنده بالقبول والتسليم.

وعلى مستوى اللغويين ، من العلماء الذين كانت لهم إسهامات في ميدان هذه الظاهرة ، فإننا من خلال تأملنا منجزاتهم ، يمكن القول : إن هذه الظاهرة كانت ميداناً رحباً ، تسابقت في مضماره اليراعات ، وتشاكست فيه التوجهات ، وتباينت فيه الأقوال.

فعلى مستوى علمائنا الأقدمين ، وجدنا من يذهب إلى القول بوجود هذه الظاهرة في معجم العربية ، ويسوق لتأييد وجهة نظره الأدلة التي تمنح رأيه صواباً ، ودعماً ، ووكادة ، حتى ينتهي بقارئه ، ومتأمل منجزه ، إلى قبول رأيه ، والتسليم به ، واعتناقه مذهباً علمياً تجاه ظاهرة الترادف.

وعلى الجانب الآخر يبادرنا علماء أثبات برفض هذه الظاهرة ، وتفنيد أدلة من يثبتونها ، وتخريج شواهدهم التي تجسد رؤيتهم واقعاً لغوياً تخريجات تشهد بقدرات جدلية عجيبة ، وتصيب براهين المثبتين بزلزلات تنال من ثبوتها ، واستقرارها ؛ إن قلنا إنها لا تنقضها نقضاً ؛ حيث يطالع الباحث لهم فروقاً تشهد بالبراعة في استشفاف الدلالات الخاصة لأمثلة الترادف ، بصورة تعطي فروقاً دلالية ليس من السهل إغفالها إلا من باب التسامح البحثي الذي قد يقنع بالتقاء أمثلة الترادف على صعيد دلالي عام متسامحاً فيما دون ذلك من دلالات خاصة.

وقد لمعت من كل فريق أسماء، وأنجزت مؤلفات، وسيقت حجج وأقيمت أدلة، وسطعت في سماء البحث براهين، وإن تكن هذه العجالة لا تحمل ذكر ذلك تفصيلاً، فذلك مما لا يخفى على طلاب العلم، بله الأعلام من الأساتذة المتخصصين، والعلماء الضالعين.

ثم إن تكن هذه الظاهرة هي صورة الواقع العلمي في المنجز القديم التراثي، فإن الصورة لعلمائنا المحدثين لا تختلف كثيراً، ومما لا يتسلل إليه ظل من ريب أن الباحث والحال هذه كثيراً ما يعاني من (دوار) وسط تلك المعتركات العلمية في القديم وفي الحديث، وكثيراً ما تسيطر عليه حيرة ذاهلة (تتشكّل) في بلبلة ذهنية، قد تسلبه القدرة على الموازنة التي تنتهي به إلى موقف خاص يطمئن إليه ويرضاه، وإن تكن تلك هي الصورة في إطار الترادف على مستوى المعجم اللغوي بعامة، فإن الصورة على مستوى المعجم القرآني لا تختلف عنها كثيراً؛ وذلك أن أمر ظاهرة الترادف في البيان القرآني أكثر مما هو عليه في المعجم اللغوي، لأن المفسرين وأصحاب مفردات القرآن وأصحاب معاني القرآن كل أولئك لهم في الميدان أدوار، ولهم في القضية مرئيات تجسدها إسهامات.

فمن قائل بوجود الترادف في القرآن الكريم، ومن معارض لهذا التوجه، منافح دون ذلك، ومن واقف موقفاً ارتآه وسطا، ولكلٍّ حججه، وبراهينه، ولكلٍّ وجهة.

وإن يكن التسامح في تلقي دلالة اللفظ قد يجوز على مستوى المعجم اللغوي، فقد لا يكون مقبولاً على مستوى البيان القرآني المعجز؛ وذلك لأمور لا تخفى، واعتبارات لها في تأمّل الذكر الحكيم واستلهام بيانه المعجز موازين.

ولطالما شغلت فكري مسألة القول بالترادف في القرآن الكريم، وأنا أمضي في صحبة العلامة (النحاس) من خلال جهوده اللغوية في (معاني القرآن) طيلة إعدادي لبحث درجة (الماجستير).

وإذا كانت منجزات سلف الأمة من العلماء على المستوى اللغوي بهذه المثابة التي سقناها آنفاً، فإن فيما تنبه إليه علماؤنا المحدثون من أسباب تسوغ وقوع الترادف في المعجم اللغوي، من تعدد اللهجات العربية، وتنوع البيئات اللغوية، واختلاط العرب بغيرهم من الأمم؛ ففي ذلك وغيره من أسباب الترادف التي أوسع القول فيها علماؤنا المحدثون؛ ما يجعل المرء أميل إلى الثقة بثبوته في العربية من خلال تعدد المنافع التي أرفدت هذه اللغة الثرية السخية بالمترادفات.

بيد أن هذه الأمور بمنأى عن التعامل مع الظاهرة على مستوى المعجم القرآني. وشرح ذلك وبسط القول فيه مما لا تنداح له مساحة هذه السطور.

وقد وجدت الأمثلة التي في جعبة المحدثين القائلين بالترادف في القرآن الكريم جد ضئيلة من جانب، وربما بُنيت على كثير من التسامح في الالتفات إلى الدلالات الخاصة، أو الدلالات الفارقة لأطراف الترادف، وهذا أمر

قد يتسامح فيه لغوياً ، وأما في فقه البيان القرآني فقد يكون الأمر غير ذلك ، إضافةً إلى أننا وجدنا لبعض المحدثين مصنفات أوردوا فيها بعضاً من الأمثلة التي تحسبها النظرة العجلى مترادفات ، ثم ساقوا ما يدفع ذلك الوهم ، وإن كنت قد أختلف معهم في منهج التناول كما سيأتي ؛ فلعلَّ القول بالترادف في القرآن ينسحب أمام أن القرآن الكريم ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ إذ هو معجزة لغوية للثقلين.

فلغة القرآن الكريم خارقة للعادات اللغوية كلها ، وهي متفردة على كل ما ألف واعتيد في التشكيل اللغوي ، والبناء الأسلوبي العربي ، في الوقت الذي نجد لبنات البيان القرآني هي لبنات العربية.

والمتدبِّر لنظم القرآن الكريم ، الفقيه بأسراره ومغازيه ، المستلهم روح الإعجاز فيه ، المجتهد في استشفاف تفوقه على كلام البشر ، يلمس إعجازه اللغوي ، في مادة الكلمة القرآنية ، وفي المسكوب الصوتي لصوامتها في الأذن - وهو ما يطلق عليه (الجرس) - وفي الصورة القالبية التي تتشكل وفقها الصوامت والصوائت معاً ، وفي هيئتها الاشتقاقية ، وفي وحي المفردة من خلال ظلالها وإشعاعاتها ، وفي التركيب المقطعي لها ، وفي مواقع العناصر الأدائية المختلفة فيها ، وفي تناغيها مع المفردات جاراتها في إطار الرقعة السياقية ، وفي غير ذلك - وهو كثير - من الأمور التي تراعى في الرؤى التأملية للمفردة اللغوية في البيان المعجز ، وبالتأمل الهادئ ، واستصحاب السياق ، وفقه سبب النزول ، وغير ذلك ممَّا يتوجب ارتفاقها في فقه البيان القرآني – يتجلى للمرء أنه لو دار على المعجم اللغوي كله يتلمس بدلاً للفظة القرآنية في موقعها المعين فإنه لن يظفر بطلبته على الإطلاق ؛ إلا ما كان من قراءة لها توجيهها ومعناها.

والقرآن الكريم يوظف المفردة اللغوية في البنية القرآنية توظيفاً معجزاً ، فهو يصطفي للمقام المادة اللغوية التي يتطلبها ، وهي تسبق لداتها إليه ، فلا يستعمل القرآن الكريم أية مادة إلا في المقام المناسب لها ؛ فلكل مادة في رفيع إعجازه مقام ، وتلك روح إعجازية تشرق في سائر الذكر الحكيم ﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴾ (النساء : ٨٢).

وهذه هي اللبنة الأولى في الإعجاز القرآني ، ويأتي بعدها مترتباً عليها إعجازه البياني والبلاغي لهذا التنزيل ، وهذه حقيقة يجب التنبه لها في فقه حقيقة الإعجاز ، فمع كامل قناعتنا بما يسوقه علماء البلاغة من شواهد للإعجاز البياني ، إلا أن الحق ، وحسن التأني لفقه حقيقة الإعجاز ، يؤكد أن الإعجاز اللغوي لا يقل عن البلاغي أهمية ؛ بل هما متظافران. ومن مفردات منظومة هذا الإعجاز : الإعجاز باصطفاء المفردات لابتناء التراكيب ، وهو ما يلتقي وقضية الترادف على صعيد واحد. ومن خلال هذا الإعجاز كله تحدي الله العرب – ذوي الفصاحة واللسن– في أبين صفاتهم ، وأجل سماتهم.

إن القرآن الكريم قد أشار إلى ضرورة الدقة في ابتناء الأساليب من لبنات المواد اللغوية ، ورفض مبدأ التسامح في توظيف المواد اللغوية بعضها مكان بعض ، بجامع التقارب المعنوي ، أو لمجرد الالتقاء في الدلالة (المركزية) مؤثراً ضرورة الالتفات إلى الدلالة الخاصة لكل مادة ، تلك التي يمكن أن نسميها (الدلالة الفارقة) أي التي تميز أطراف المجموعة التي تتقارب في الدلالات العامة.

ونؤنس ذلك بشاهد قرآني نراه الفيصل في المسألة - بإذن الله تعالى - يقول الله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ﴾ (البقرة: ١٠٤).

فالمؤمنون قالوا: (راعنا)، لكن القرآن الكريم نهاهم عن لوك هذه الكلمة وإن كانت تؤدي المعنى الذي يقصدون، فلم كان ذلك ؟

لقد كان اليهود يستعملون كلمة مثلها في السباب، وأصلها كلمة عبرية مدلولها (أحمق)، فلما أن سمع اليهود المسلمين يقولونها افترضوها.

لذا جاء النهي للمسلمين عن استعمالها، ووجهوا إلى كلمة أخرى تعطي المعنى الذي يريدونه، لكنها بمبعدة عن أن تعن منها فرصة لليهود، وهي كلمة (انظرنا)، حتى لا يتشبهوا باليهود في قولهم، ولكي يوصد أمام اليهود باب الطعن والسب (١، ج ١/١٣٠) بتصرف.

على هذه الوتائر كان البيان القرآني يمضي، فلا تجد فيه مادة يمكن أن يستبدل بها غيرها في مقامها، أو تؤدي معناها الخاص بها، وقد تؤدي المعنى العام، ولكنك لن تظفر بما تدل عليه من المعنى الخاص والدقيق إلا بها.

ومن ثم لفتني هذا الموضوع، واستولى علي ؛ فاستخرت الله، واستشرت المخلصين من الناصحين، وتوكلت على الله، وقد خطرت لي خاطرة أن المادة التي سيتشكل منها البحث ربما تكون قليلة محدودة، أستطيع بمثل هذا البحث أن أُلمَّ بأطرافها، وأحيط بألفاظها، ولكن بقراءة فاحصة للمصحف أيقنت أني أمام عدد زاخر، تنوء بالعصبة أولى العلم والمعرفة، أسأل الله أن يوفقني للنهوض بحقوقها، أو شيء من ذلك، فقد أحصيت ما يربو على ثلاثمائة أسرة لغوية، فيها ما ينيف على ألف وثمانمائة لفظة، تتوزع وفق نظرية الحقول الدلالية، وذلك بمراعاة ارتباطها في المعاني العامة، وردّ بعض هذه المواد بدلالاتها إلى بعض، مع حاجة إلى دقة ملاحظة، وغوص في التأويل.

وسيقف هذا البحث مع لفظتين كنموذج لألفاظ هذه الظاهرة واستعمالاتها في القرآن الكريم، والتي أسأل الله تعالى أن يعينني على إتمامها، وأن يجعل فيها فتحاً لي ولمن يروم تأملها.

وهمـا لفظتـا : " الـشك " ، و " الريـب " ، وذلـك بتتبـع ورودهمـا في الـنص القرآنـي ، وتأصـيل اشـتقاقهما ، والكشف عما يحملانه من دلالات ومعان متعددة ، سواء أكانت هـذه المعـاني وظيفيـة (صـوتاً – صـرفاً – نحـواً) ، أم معجميّةً.

محاولاً استقراء (الجذر اللغوي) الذي ورد لهاتين المفردتين ، وإيجاد العلاقـة بينـه وبـين المعـاني المـستخدمة لهـمـا في القرآن خاصة ، وفي العربية عامة ، واستجلاء معانيهما الدقيقة ، والفروق بينهما إن كانت ثمة فروق ، وقبـل ذلـك أوجـز مذاهب العلماء حول هذه القضية ، ما بين قائل بالفروق ، أو قائل بالترادف ، وذلك في الفصل الأول من هذا البحث.

الفصل الأول: الدراسة النظرية: الترادف ومذاهب العلماء فيه.

المبحث الأول: الترادف عند اللغويين من أهل العربية

١- تعريفه

الترادف لغةً : التتابع ، جاء في لسان العرب : " الردف ما يتبع الشيء وكل شيء تبع شيئاً فهو ردفه ، وإذا تتابع شيء خلف شيء فهو الترادف " [٢ ، ج١١ ص١٣ ، ردف].

فمعنـاه عنـد أصـحاب المعـاجم العربيـة القديمـة لا يخـرج عـن معنـى التتـابع ، وبهـذا يظهـر أن اسـتعمال لفظـة " الترادف" بالمعنى الذي اشتهرت به أخيراً من أنه : توالي الألفاظ المفردة على معنى واحد ، إنما هو اصـطلاح متـأخر إذ إنّـه لـيس مستعملاً في المعـاجم العربيـة الأولى بهـذا المفهـوم ، قـال الفيروزأبـادي : "والمترادف..أن تكـون أسمـاء لـشيءٍ واحد ، وهي مؤكدة [٣ ، ج٣ ص١٤٤ ردف ، و٤ ـ ج٦ ص ١١٦ ردف].

يؤيـد هـذا ؛ أن الكـلام عنـد أغلـب علمـاء العربيـة المتقـدمين ، حـول مـا يـسمى الآن بـالمترادف ، يـدخل تحـت عنوان : علاقة اللفظ بالمعنى من حيث الاتفاق والاختلاف [٥ ، ج١ ص٢٤ ، و٦ ، ص٢ ، و٧ ، ص٩٦ ، ٢٠٢ ، و٨ ، ج٢ ص٤٦٨].

فهو – عندهم - توالي الألفاظ المختلفة على معنى واحد ، دون أن يكون هناك شروط أخـرى ، إضـافة إلى أن عباراتهم تدل على أن استعمال لفـظ : الـترادف بهـذا المعنـى ، كـان متـأخراً ، وأنـه مُولَّـد ، ممـا يفسر لنـا عـدم وجـود تعريف دقيق واضح للترادف عندهم ، رغم أهمِّيته في فهم القضية ، وتحديد المواقف تجاهها.

٢- شروطه لدى المحدثين

قد وقف علماء اللغة المتقدمون – كما أسلفنا - عند مجرد تعريـف الـترادف بأنـه تـوارد الألفـاظ المتعـددة علـى المعنى الواحد ، دون الخوض في تحليل التعريف وبيان الشروط ، ولعلماء اللغة من المحـدثين شـروط فيمـا ينـسب مـن الألفاظ إلى هذه الظاهرة ، وأهم تلك الشروط :

١- الاتحاد في المفهوم، فوجود فروق مهما كانت دقيقة بين الألفاظ يخرجها من دائرة الترادف.

٢- الاتحاد في البيئة اللغوية، وذلك " أن يكون للرجل الواحد في البيئة الواحدة، الحرية في استعمال كلمتين أو أكثر في معنى واحد، يختار هذه حيناً، ويختار تلك حيناً آخر.. [٩، ص١٧٨ و ١٠، ص١١٦].

٣- اتحاد العصر. [٩، ص١٧٩ و١٠، ص١١٧].

٤- ألا يكون أحد اللفظين نتيجة تطور صوتي للفظ آخر. [٩، ص١٧٩ و١٠، ص١١٨].

ويلاحظ أنه بتطبيقها على اللغة العربية، يؤدي إلى تضييق دائرة الترادف وأنه لا يكاد يوجد إلا بقلة، وإن كانت هذه الشروط غير متفق عليها عند جميع المحدثين، فقد وجدنا من يوسع في دائرة قبولها، فهذا الطاهر بن عاشور يرى أن الصيغ المختلفة الدالة على معنى واحد من قبيل المترادف، فيقول في تعريفه: " أنه لفظ مفرد دال بالوضع على معنى قد دلَّ عليه بالوضع لفظ آخر مفرد يخالفه في بعض حروفه الموضوع عليها؛ بحيث تنطق به قبائل العرب كلها إذا شاءت... (١١، ج٤ ص ٢٢٢).

٣- محصلة

من خلال ما سبق من التعريف والشروط نجد أن الاختلاف في فهم الترادف يتراوح بين توسيع دائرته وتضييقها؛ فبعضهم يرى أن المعنى الدقيق للترادف يقتضي أن تدل الكلمات المترادفة على معنى واحد على التحديد لا على التقريب؛ إذ مجرد وجود أدنى الفروق وأقلها بين الألفاظ يخرجها عن الترادف، في حين يرى آخرون أن المترادفات كلمات متشابهة في المعنى الأساسي مع قليل من التباين في نواحٍ أخرى، أو أنها تشترك في المعنى العام، ولكن كل واحدة منها تختص بنصيب تنفرد به دون الأخرى، وأن المقصود أنها بالرغم من شدة تشابه معانيها، تتضمن فروقاً جزئية، سواءٌ أكانت هذه الفروق مصاحبة للكلمة في أصل الوضع، أم طارئة عليها بالاستعمال، وأنها جاءت إليها من تصرف البلغاء وأساطين البيان. [١٢، ج١ ص٣٠٧].

وهذا يعني وجود بعض الفروق بين الألفاظ، وإن ذلك لا يمنع من اعتبارها مترادفة وإطلاق هذه التسمية عليها، فهذا الاختلاف في تحديد معنى الترادف، يعتبر أحد الأسباب المهمة التي دعت بعض العلماء إلى إنكار وجود الترادف، ودعت آخرين إلى تضييق شقته والاعتقاد " بأنه لا يكاد يوجد في اللهجات العربية القديمة، وإنما يمكن أن يلتمس في اللغة النموذجية الأدبية ". [٩، ص١٧٩].

كما حمل بعضهم على النظر إلى الترادف كآفةٍ أصابت اللغة في عصور الانحطاط [١٣، ص٣١٨]، فأصبحت بذلك قضية تلتمس حلاً [١٤، ص١٩٤].

ويرى آخرون كثرة وضع المترادفات، حيث تنفرد هذه القبيلة بكلمة وتنفرد تلك بكلمة أخرى، لا هذه تأخذ عن تلك، ولا تلك تأخذ عن هذه، فلو سار الواحد في غير قبيلته لسار بترجمان [١٢، ٨ ص ١٢٥].

وهذا الاختلاف مرده – كما سلف – إلى عدم الاتفاق على تحديد معنى الترادف، وفهم مدلوله، فبتحديد معنى الترادف بدقة يقرب القائلون بالترادف من القائلين بالفروق، ويكون الخلاف بينهما شبه لفظي في أكثر الأحيان، نظراً للشروط التي يضعونها في اعتبار الترادف.

المبحث الثاني: القائلون بالترادف في القرآن الكريم

ذهب بعض العلماء إلى القول بالترادف في القرآن الكريم كما أنه في اللغة العربية، كيف لا وقد نزل القرآن بلغة العرب، وهو يجري على أساليبها، وطرق التعبير فيها، وعليه رفض فريق من العلماء محاولات فريق آخر من المفسرين ذكر فروقاً بين بعض الألفاظ التي قيل بترادفها في القرآن الكريم، وأن الترادف - عندهم - واقع بكثرة في ألفاظ القرآن الكريم.

وهؤلاء يعدون من القائلين بالترادف في العربية من باب أولى وعلى رأسهم: ابن الأثير (ت٦٣٧هـ)، فقد صرح بذلك في غير ما موضع من كتابه " المثل السائر"[١٥، ج٢ ص١٦٠، ١٦٥، ١٧٤، ١٧٥]، وكذا ابن العربي (ت٥٤٣هـ)، ومن المحدثين من أهل اللغة صبحي الصالحي [١٧، ص٣٠٠]، وإبراهيم أنيس [٩، ص١٨١]. ولعل القائلين بوجود الترادف في القرآن الكريم لا يلتفتون إلا إلى القدر المشترك من المعنى العام بين الكلمات، من غير ملاحظة الفروق الدقيقة بينها، والتي تظهر في تتبع دوران هذه الكلمة في أسلوب القرآن الكريم ومعرفة متى يستعملها، وفي أي سياق يكون ذلك الاستعمال.

ذلكم أن اللفظة القرآنية موضوعة في سبك رائع قوي، يظهر معه استواء كل كلمة في محلها اللائق بها، بما لا يجعل أي كلمة أخرى من الألفاظ المقاربة لها في المعنى، تقوم مقامها، أو تؤدي كامل معناها بصوره وظلاله، وبروعته وجماله.

ونحن حين نفسر المفردات القرآنية بكلمات أخرى، لا نقوم بأكثر من تقريب المعنى، ليكون في متناول فهم من ندت عنه معاني هذه الكلمات لسبب أو لآخر، فالتفسير إنما هو من باب التقريب؛ لا التحديد الدقيق.

بل إن حركات الكلمات لها إيحاءاتها، ومدلولاتها الخاصة بها؛ مما لا تؤديه ذات الكلمة حين تتغير حركاتها وسكناتها، فالنظر إلى لفظة " يُذبِّحون ": في قوله ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ (البقرة: ٤٩)، يوحي بأكثر من معنى فهي تصور ما حدث أولاً، وتوحي بكثرته ثانياً، وتدل على نوعه، ثالثاً: [١٨، ص١٨٤، و١٩، ص٢٢٣، و٢٠، ص١٣٤]، ولعل هذه المعاني أو بعضها لا تدل عليها هذه اللفظة - من غير تشديد- فضلاً عن أن تؤديها، أو تسد مسدها لفظة أخرى.

المبحث الثالث: مذهب القائلين بالفروق وأدلتهم

أنكر جماعة من العلماء على اختلاف فنونهم حدوث الترادف التام بين الألفاظ، فلكُلٍّ لفظة من الألفاظ التي قيل بترادفها، لونٌ، أو نوعٌ، أو درجة، أو صفة لا تشاركها فيها اللفظة الأخرى.

فقد يكون أحد اللفظين موضوعاً في أصل اللغة للذات، واللفظ الآخر موضوعاً على أنه صفة لتلك الذات، أو أنه من باب اختلاف الصفات، أو من باب اختلاف الحالة السابقة؛ كالقعود من القيام، والجلوس من الاضطجاع.

ولا يعني هذا أنه لا يجوز أن يعبر عن اللفظة بالأخرى، يقول ابن فارس: "وأما قولهم: إن المعنيين لو اختلفا ما جاز أن يعبر عن الشيء بالشيء، فإنا نقول: إنما عبر عنه عن طريق المشاكلة، ولسنا نقول: إن اللفظتين مختلفتان فيلزمنا ما قالوه، وإنما نقول: إنّ في كل واحدة منها معنى ليس في الأخرى. [٧، ص٩٧، و٢١، ج١ ص٤٠٤، ٤٠٥].

وقد أزال أبو هلال العسكري هذا الإشكال، وذهب هذا المذهب فقال: "ولعل قائلاً يقول: إن اقتناعك من أن يكون للفظين المختلفين معنى واحد، رد على جميع أهل اللغة، لأنهم إذا أرادوا أن يفسروا اللب قالوا: العقل.. وهذا يدل على أن اللب والعقل عندهم سواء.

قلنا: ونحن – أيضاً- كذلك نقول، إلا أنا نذهب إلى أن قولنا اللب وإن كان هو العقل فإنه يفيد خلاف ما يفيد قولنا العقل.. [٢٢، ص١٦].

أدلتهم

أولاً: اعتقادهم في ذلك أن المثل الأعلى للغة عبارة عن لفظ واحد لكل مسمى؛ فلا ترادف، ولا اشتراك، وأن الأصل عند تعدد الأسماء تعدد المسميات [٢٣، ج١، ص٢٣ و٢٤، ج٢ ص١١١]، فالترادف إذاً خلاف الأصل، وإذا تردد اللفظ بين الترادف وغيره حمل على غيره، واختلاف العبارات، والأسماء يوجب اختلاف المعاني، والقول بالترادف يؤدي إلى تعطيل لفائدة أحد اللفظين، لحصولها باللفظ الآخر.

ثانياً: القول بالترادف يؤدي إلى تكثير اللغة بما لا فائدة فيه، ولا حاجة إليه؛ حيث يقول أبو هلال العسكري: " وحاجتنا إلى الاختصار تلزمنا الاقتصار في تأييد هذا المذهب " [٢٢ص١٦].

وثالثاً: أن المؤونة في حفظ الاسم الواحد أخف من حفظ الاسمين، بله المئين، وربما الألوف أحياناً، كما قرر الأصوليون بأن الأصل التزام أخف المشتقين لتحصيل أعظم الفائدتين. [٢٣، ج١ ص٢٣].

والدليل الرابع: أن ما دون في المعجمات وكتب اللغة على أنه من المترادفات قد لا يكون كذلك؛ وذلك أن بعض العرب كانت تفرق بينه وتعرف لكل لفظة دلالتها الخاصة بها، ولا يلزم من جهلنا بهذه الفروق، تجهيل

العرب بها أيضاً، وما جاء ظاهره كذلك إنما هو متباين بسبب اختلاف الاعتبار، إما: لدلالته على الذات، أو على الصفة، أو صفة الصفة، أو أنه راجع إلى اختلاف القبائل، أو كثرة المجاز، أو الاشتقاق.

وأخيراً: ما ورد من عطف أحد المترادفين على الآخر بحرف الواو، يدل على وجود فرق بينهما، لأن التعاطف دليل التغاير، فالعطف بحرف الواو يدل على المغايرة لأنه يفيد مطلق التشريك بين المتعاطفين، والتشريك يقتضي أن يكون هناك شيئان – أو أكثر – يشتركان في شيء، لأن الشيء الواحد لا يشارك نفسه، وإن تعددت ألفاظه ما دام شيئاً واحداً، فإذا جاز تعقيب اللفظ بمرادفه لقصد التوكيد والمبالغة لم يجز ذلك بحرف التشريك. [١١، ج٤ص٢٦٨].

يؤيد هذا المذهب حديث البراء بن عازب - رضي الله عنه - قال: جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله علمني عملاً يدخلني الجنة، فقال: "لئن كنت أقصرت الخطبة لقد أعرضت المسألة: اعتق النسمة وفك الرقبة، فقال يا رسول الله أو ليستا بواحدة؟ قال: لا، إن عتق النسمة أن تفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في عتقها.." [٢٥، ج٤ ص٢٩٩].

وكذا حديثه الآخر الذي أراد أن يعيد فيه الدعاء على النبي ﷺ قال: "آمنت بكتابك الذي أنزلت، وبرسولك الذي أرسلت، قال له النبي ﷺ: لا، وبنبيك الذي أرسلت" [٢٦، ج١١ص١٠٩، ١١٣، ١١٥، و٢٧، ج١٧ص٣٢].

ففي الحديث الأول نص على اختلاف عتق النسمة عن فك الرقبة، مع أن كثيرين يعتقدون أن معناهما واحد، وفي الثاني لم يقبل النبي ﷺ من البراء وضع رسول بدل نبي، وما ذلك إلا لما تؤديه كل لفظة من مدلول دقيق، وإن بدا للبعض أنهما بمعنى واحد، وفي هذا ما يؤكد أهمية تحديد مدلول الألفاظ، واستعمال كل لفظ في موضعه الأخص، وتفهم معاني الألفاظ على حقيقتها.

والقرآن الكريم أولى بهذا التحديد لمدلول ألفاظه، ومناسبتها لسياقاتها، وما يتبع ذلك من ظلال، وإيحاءات، لذا نفى جمع من العلماء القول بالترادف، وذهبوا إلى القول بالفروق بين ما ظاهره الترادف في اللغة.

وقضية الترادف، أو القول بالفروق بينهما، وإن بدت للوهلة الأولى أنها قضية لغوية، إلا أنها عظيمة الأثر في تفسير القرآن الكريم وفهم معانيه، يقول ابن تيمية رحمه الله: " ومن الأقوال الموجودة عنهم – يعني السلف- ويجعلها بعض الناس اختلافاً: أن يعبروا عن المعاني بألفاظ متقاربة لا مترادفة، فإن الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر، وإما معدوم، وقلَّ أن يعبر عن معنى واحد بلفظ واحد يؤدي جميع معناه، بل يكون فيه تقريب لمعناه، وهذا من أسباب إعجاز القرآن، فإذا قال القائل ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴾ (الطور: ٦) إن المور هو الحركة. كان تقريباً؛ إذ المور حركة خفيفة سريعة". [٢٨، ص٥١].

وبناءً على ذلك ؛ فإن من أولى الواجبات على المفسر أن يعرف دلالة الكلمات المفردة على التحديد ؛ لذا ذهب الراغب الأصفهاني إلى أن من فسر (الحمد لله) بقوله : (الشكر لله) ولا (ريب فيه) بـ (لاشك فيه) عليه أن لا يقدر أنه فسر القرآن ووفاه البيان [٢٩ ، ص٦]، إذ لابد لمن يريد تفسير القرآن الكريم أن يكون عالماً بدقائق اللغة وحقائقها ، عارفاً بدلالات الألفاظ، وقواعد العربية ، يقول الزركشي : " وليس لغير العالم بحقائق اللغة ، ومفهوماتها تفسير شيء من الكتاب العزيز ، ولا يكفي في حقه تعلم اليسير منها فقد يكون اللفظ مشتركاً وهو يعلم أحد المعنيين " [٣٠، ج٢ ، ص٦٥١ ، ٢٩٥].

وسنحتكم في هذا البحث إلى القرآن الكريم ، لنستجلي الحقيقة في هذه القضية ، وذلك باستقراء مثالٍ واحد من أمثلتها في سياقاتها المتنوعة ، التي تبدو في نظر البعض أنها مترادفة ، لنرى كيف يستعملها القرآن الكريم ، وفي أي سياق يضعها ، وهل يستعملها في بيانه على أنها ألفاظ مترادفة تقوم كل لفظة من هذه الألفاظ مقام الأخرى في تأدية كامل المعنى ؟ أم أنه يستعملها بدلالة لا يمكن أن يؤديها لفظ آخر ؟

ذلك لمنزلة القرآن الكريم من العربية ، فهو تاجها ، ومثلها الفريد ، ومعجزتها البيانية الخالدة ، وهو النص المقدس والموثق من أصيل الفصحى وبليغها.

وهذا المثال هو لفظتا "الرّيب" و"الشكّ" وفي النية – إن شاء الله إتمام المشوار مع أمثلة أخرى إن نسأ الله في الأجل ، وبارك في العمر ، نسأل الله التيسير والتوفيق.

الفصل الثاني: الدراسة التطبيقية " الريب"، و " الشك" في القرآن الكريم

أولاً: " الريب "

وردت هذه اللفظة في مواضع متعددة من القرآن الكريم ، بلغت ستة وثلاثين موضعاً بصيغ متنوعة ، فتارة بصيغة المصدر " ريب" ، وذلك في ثمانية عشر موضعاً (البقرة : ٢ ، ٢٣ ، آل عمران : ٩ ، ٢٥ ، النساء : ٨٧ ، الأنعام : ١٢ ، التوبة : ٤٥ ، يونس : ٣٧ ، الإسراء : ٩٩ ، الكهف : ٢١ ، الحج : ٥ ، ٧ ، السجدة : ٢ ، غافر : ٥٩ ، الشورى : ٧ ، الجاثية : ٢٦ ، ٣٢ ، الطور : ٣٠) ، وتارة بصيغة الفعل الماضي ، والمضارع " ترتابوا " ، " ارتابت " ، "ارتبتم" ، وذلك في تسعة مواضع (البقرة : ٢٨٢ ، المائدة: ١٠٦ ، التوبة : ٤٥ ، النور : ٥٠ ، العنكبوت : ٤٨ ، الحجرات : ١٥ ، الحديد : ١٤ ، الطلاق : ٤ ، المدثر : ٣١)، وجاءت في ثمانية مواضع بصيغة اسم الفاعل " مريب" (هود : ٦٢ ، ١١٠ ، إبراهيم : ٩ ، سبأ : ٥٤ ، غافر : ٣٤، فصلت : ٤٥ ، الشورى : ١٤ ، ق : ٢٥)، ومرة واحدة بصيغة " ريبة" (التوبة : ١١٠) .

وبتتبع هذه المادة في معجمات اللغة وجد أنها تُفَسَّر بما يوحي أو يشعر بالمعنى المرادف للظن، أو الشك، أو التهمة، أو الخوف [٣١، ج١٥، ص٢٥٢ راب و٣٢، ج٢ ص٤٠٨ ريب و ٣٣، ج١ص١٤١ و٣ص١١٨ ريب و٢، ج١ ص٤٤٢].

يقول ابن فارس: " ريب: الراء، والياء، والباء أصل يدل على شك أو شك وخوف، فالريب: الشك.. " [٣٤ ج ٢ص٤٦٣ ريب].

ويقول ابن منظور: " الريب والريبة: الشك، والظن، والتهمة " [٥٢ ج١ ص٤٤٢ ريب]، فمعناها يدور حول الشك المصاحب للتهمة، والظن يؤكّد ذلك قول ابن الأثير: " وقد تكرر ذكر الريب، وهو بمعنى الشك مع التهمة.." [٣٥، ج٢ص٢٨٦].

ومصاحبة الريب للتهمة أو التوهم، أنه لا يزال بالمرتاب حتى ينكشف له عما يتوهمه؛ إن عاجلاً، وإن آجلاً، إنْ في الدنيا، وإنْ في الآخرة، ولا يكون ذلك في المؤمن، ويجلي الراغب الأصفهاني هذا المعنى فيقول: " الرَّيب: أن تتوهم بالشيء أمراً ما فينكشف عما تتوهمه، قال الله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ ﴾ (الحج: ٥)، ﴿فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ﴾ (البقرة: ٢٣)، تنبيهاً أن لا ريب فيه، ونفى من المؤمنين الارتياب، فقال ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ (المدثر: ٣١)، والريبة اسم من الريب قال: ﴿بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾ (التوبة: ١١)، تدل على دغل وقلة يقين. [٢٩، ص٢٠٥ كتاب الراء (ريب) و٣٦ ج٣ ص١١٣-١١٤].

والريب – كما يقول الزمخشري –: " قلق النفس واضطرابها ". [١، ج١ ص١١٢].

ويختلف الرَّيب عما يقال إنه مرادفه من الشك ونحوه أنه - كما يقول الرازي- : " قريب من الشك، وفيه زيادة، كأنه ظن سوء، تقول: رابني أمر فلان، إذا ظننت به سوءاً، ومنه قوله عليه السلام: " دع ما يريبك إلى ما لا يريبك " [٢٥ ج٣ص١٥٣، و٣٧ برقم ٢٥٢، و٣٨ ج٨ص١٧٩].. " [٣٩ج١ص١٨]، بل هو – كما يقول أبو حيان – مع كونه شكاً بتهمةٍ – تحقيق لهذه التهمة. [٤٠ج١ ص٣٣].

فحقيقة الريب – كما يقول اللغويون والمفسرون – قلق النفس واضطرابها، ثم استعمل – كما يقول القاسمي – في معنى الشك مطلقاً أو مع تهمة، لأنه يقلق النفس ويزيل الطمأنينة [٤١، ج١ص٣٢، ٤٢ ج١ص٢٢٢ و٤٣ ج١ ص١٠٦ و٤٤ ج١ص٧٩]، وفي قوله تعالى: ﴿ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ (التوبة: ٤٥)، دلالة على أن محل هذا القلق والتردد هو القلب فقط، ومتى كان محل الريب هو القلب كان محل المعرفة؛ بل رسوخ الريب فيه. [٣٩، ج١٦ ص٧٧، و٤١ ج٨ ص٢٢٣].

ولزاماً علينا – ونحن نستلهم الدلالات اللغوية من خلال خصوصية العبارة القرآنية – أن نتوقف قليلاً عند استخدام النص القرآني لبعض الألفاظ، وإيثاره لها دون بعضها الآخر.

ففي تتبع لهذه اللفظة في الآيات التي وردت فيها، وتدبر لمعناها في سياقاتها، وقرائنها، وأحوالها، ومناسباتها، وجدناها ترد في معرض الحديث عن الكفار، والمنافقين، وما يتصفون به من القلق النفسي، وعدم الطمأنينة القلبية، فهم دائماً في حيرة وتردد، وفي معرض نفي ذلك، أو شيء منه عن أهل الإيمان والإسلام الذين استقرت قلوبهم على ما فطرت عليه، وعلى ما جاءت به الرسل – عليهم الصلاة والسلام – فخلصت من الحيرة، ونُقِّيَتْ من القلق والتردد، فلم يمازج قلوبهم القلق، أو تشرب نفوسهم الشك المزعزع لها، بعد أن وقر الإيمان في قلوبهم، ولذلك وجدنا هذه المادة حين جاءت في افتتاحية سورة البقرة لتقرر مقومات الإيمان التي هي صفات المؤمنين الصادقين، تنفي ريب الكفار والمنافقين الذين لم تلامس التقوى أو تباشر قلوبهم.

وبتلك الصفات التي جاءت للمؤمنين، فإنها تقول: من أراد الهدى الحقيقي الذي لا يخالطه ريب، ولا قلق، ولا شبهة، فعليه أنْ يأتي إليه – حين يبدأ الشك – بقلب سليم، خالص، مريد للحق أنَّى وجده اتبعه " فمن أين يكون ريب، ودلالة الصدق واليقين كامنة في هذا المطلع، ظاهرة في عجزهم عن صياغة مثله، من مثل هذه الأحرف المتداولة بينهم، المعروفة لهم من لغتهم "، فكأن هذه الآية ونحوها مِمَّا هو في معناها – من حيث التردد أو الشك فيما هو ظاهر الحجة والبيان – جاءت لا لتنفي حدوث الرَّيب فيما هو مثل ذلك، وإنما كونه بلغ غاية الحجة، والظهور فإنه لا يجوز للمؤمن؛ بله العاقل أن يرتاب فيه.

ثانياً: الشك

جاءت هذه المادة في خمس عشرة آية من القرآن الكريم بصيغة واحدة، هي صيغة المصدر "شك" مسبوقة بحرف الجر، مجردة من "أل" (النساء: ١٥٧، يونس: ٩٤، ١٠٤، هود: ٦٢، ١١٠، إبراهيم: ٩، النمل: ٦٦، سبأ: ٢١، ٥٤، ص٨، غافر: ٣٤، فصلت: ٤٥، الشورى: ١٤، الدخان: ٩)، عدا موضع واحد جاء مرفوعاً في موضع الابتداء، وذلك في قوله تعالى ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (إبراهيم: ١٠)، كان الشك في تسعة من تلك المواضع مطلقاً (النساء: ١٥٧، يونس: ٩٤، ١٠٤، إبراهيم: ١٠، النمل: ٦٦، سبأ: ٢١، ص٨، غافر: ٣٤، الدخان: ٩)، وفي ستة منها موصوفاً بأنه " مريب" (هود: ٦٢، ١١٠، إبراهيم: ٩، سبأ: ٥٤، فصلت: ٤٥، الشورى: ١٤).

ومعنى "الشك" في اللغة – كما يقول ابن فارس – يدل على التداخل، من ذلك قولهم: شككته بالرمح، وذلك إذا طعنته فداخل السنان جسمه. (٣٤، ج٣ ص١٧٣، و٣١ج٩ ص٤٢٥، و٣٣جـص١٥٩٤، و٢ج١٠ص٤٥١، و٣ص٢٢٠ في جميعها مادة شك).

ومعناه الاصطلاحي: خلاف اليقين، وعلاقته بالمعنى اللغويّ - كما يقول ابن فارس- أن الشاك كأنه شُكَّ له الأمران في مشكٍّ واحد، وهو لا يتيقن واحداً منهما. [٣٤ ج٣ص١٧٣ شكك، و٣٢ج٢ص٤٩٨].

والشك – عند الراغب الأصفهاني –: " اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما ، وذلك قد يكون لوجود أمارتين متساويتين عند النقيضين ، أو لعدم الأمارة فيهما ، والشك ربما كان في الشيء أهو موجود أو غير موجود ؟ وربما كان في جنسه من أي جنس هو ؟ وربما كان في بعض صفاته ، وربما كان في الغرض الذي لأجله أوجد.

واشتقاقه - عنده- إما من شككت الشيء ، أي : خرقته ، فكأن الشك الخرق في الشيء ، ويصح أن يكون مستعاراً من الشك : وهو لصوق العضد بالجنب ، وذلك أن يتلاصق النقيضان ، فلا مدخل للفهم والرأي لتخلل ما بينهما. [٢٩ص٢٦٥ شكك ، و٣٦ج٣ص٣٣٢].

وفي تأمل وتدبر لمعناها في سياقاتها وأحوالها فيما وردت فيه من الآيات والمناسبات القرآنية ، وجد أنها سيقت لوصف من لا يترجح عنده أحد الجائزين ، أو في سياق التقرير لما هو يقيني بالفطرة والعقل والعلم الذي ربما يعتريه شيء من صفة النقص البشرية بالتفكر أو التأمل ؛ لاسيما في أمور الغيب والإيمان بها ، فمثال ما سبق لوصف من لا يترجح عنده أحد الأمرين من تلك الآيات قوله تعالى ﴿ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴾ (النساء : ١٥٧).

ففي هذه الآية قد وصفوا بالشك ، ثم اتبعوا بوصف الظن ، والظن – كما هو مقرر عند اللغويين والأصوليين – أن يترجح أحد الأمرين. ثم وصفوا بعدم اليقين ، وكأنهم قتلوه مترجحاً لديهم أنه هو المسيح عيسى بن مريم - عليه السلام– لكنه ليس يقيناً ، فكيف يكونون شاكّين ظانين ؟!

وللإجابة عن هذا الإشكال يقول الزمخشري : " أريد أنهم شاكون ما لهم من علم قط ، ولكن لاحت لهم أمارة فظنوا.." [١ ، ج١ص٥٨٠].

فالشك لم يخرج عن معناه الذي هو جواز الأمرين على حدٍّ سواء ، وذلك في بداية الحيرة ، ثم ترقى هذا التردد إلى درجة الظن التي يترجح معها - عند صاحبها - أحد الأمرين.

وقد كان ذلك - كما يقول بعض المفسرين - عند جميع القوم ، وقيل : عند عوامهم [٤٥ج١ص٩]، فهم - كما يقول البقاعي - : " يكلفون أنفسهم الارتقاء من درك الشك إلى رتبة الظن.. ثم يجزمون به ، ثم صار عندهم متواتراً.." [٤٤ ، ج٥ص٤٦٥].

واليقين - كما قال ابن عطية - : " الذي صح فيه نقل الكافة عن حواسها هو أن شخصاً صلب ، وهل هو عيسى أم لا ، فليس هو من علم الحواس ، فلذلك لم يقع في ذلك نقل كافة ، والضمير في (فيه) عائد على القتل ، معناه : في قتله ، وهذا هو الظاهر الذي يدل عليه ما قبله وما بعده. [٤٠ ، ج٣ ، ص٣٩٠].

ولذلك - كما يقول البقاعي - " أكد هذا المعنى ؛ أي تردد القوم وإن جزم بعضهم بقوله (ما لهم به) وأغرق في النفي بقوله (من علم)، فربما قويت عندهم شبهه فصارت أمارة أوجبت لهم - لشغفهم بآمالها - ظناً ثم اضمحلت في الحال لكونها لا حقيقة لها، فعاد الشك، وكان أبلغ في التحير. (٤٤، ج٥ ص٤٦٥).

وإن كان بعض العلماء قد حمل معنى الظن على معنى الشك، بدليل مجيء الظن على صفة التأكيد للشك الوارد مطلع الآية. (٤٢، ج٦ص٢٢)

وخلاصة القول أن " قضية قتل عيسى عليه السلام وصلبه، قضية يخبط فيها اليهود كما يخبط فيها النصارى بالظنون، وما من أحد من هؤلاء أوهؤلاء يقول ما يقول عن يقين، فلقد تتابعت الأحداث سراعاً، وتضاربت الروايات، وتداخلت في تلك الفترة بحيث يصعب الاهتداء فيها إلى يقين، إلا ما يقصه رب العالمين، ولا يجد المختلفون فيها سنداً يرجح رواية على رواية ". [٤٦، ج٢ص٨٠١]

ولعل السر - والله أعلم - من غياب الأمرين عنهم، وعدم الاهتداء فيه إلى حقيقة قطعية هو وجود قرائن أسهمت في تعميق هذه الحيرة، وذلك التردد كإلقاء الله تعالى شبه عيسى على ذلك المصلوب، ثم إنه بعد تبين حقيقة ذلك المقتول حدث تردد - كذلك - عند من ظنوا أنهم قتلوه يقيناً، فأضعفت تلك الأمارات من ذلك اليقين، ومالوا إلى الحقيقة، إلا أنهم لم يهتدوا إلى صواب فيها مع حرصهم عليها.

هذا شاهد لما ورد فيه " الشك" وصفاً لمن تساوى عنده الأمران، ولم يهتد فيهما إلى أحدهما، أو يرجح أحدهما على الآخر، وما يصدق هنا قد يصدق على آية النمل ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴾ (النمل: ٦٦)، وآية سبأ: ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ (سبأ: ٢١)، وآية الدخان ﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴾ (الدخان: ٩).

وأما شاهد ما ورد منها - والله أعلم - في سياق التقرير أو التثبيت لما هو يقيني بالفطرة والعقل والعلم قوله تعالى: ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴾ (يونس: ٩٤).

فقد ظهر خلاف بين أهل التفسير حول معنى الآية من حيث توجيه الخطاب ؛ فمن قائل: إن الخطاب موجه للنبي ﷺ وهو المعني به، وقيل: إنه لغيره، وقيل: هو للنبي ﷺ، والمراد غيره [٤٩، ج١٧ ص١٦٠، و٤٥ ج٨ص٣٨٢، و٤٠ج٥ ص١٩١، و٤٣ ج١١ص١٨٩، و٤١ ج٩ص٨٠] ، ومرد الخلاف هذا إلى معنى "الشك" ومدى جواز نسبته أو حصوله من النبي - عليه السلام - أو المؤمنين.

ومعنى هذه الآية – كما يقول الزمخشري - : " بمعنى الفرض والتمثيل ، كأنه قيل : فإن وقع لك شك مثلاً ، وخيل لك الشيطان خيالاً منه تقديراً.. وسبيل من خالجته شبهة في الدين أن يسارع إلى حلها وإبطالها ، إما بالرجوع إلى قوانين الدين وأدلته ، وإما بمقادحة العلماء المنبهين على الحق فسل علماء أهل الكتاب.. [١ ج٢ص٢٥٢].

وبحكم بشرية النبي ﷺ - كما يقول الرازي- كان حصول مثل ذلك في قلبه من الجائزات. [٣٩ج١٧ص١٦٠].

وقد فسر بعضهم "الشك" - هنا - بأنه : ضيق الصدر ، أي : إن ضاق صدرك بكفر هؤلاء فاصبر ، فكأن " الشك" يقبض الصدر ويضمه حتى يضيق ، بدليل قوله عليه الصلاة والسلام – لما نزلت هذه الآية- " والله لا أشك" [٤٥ ، ج٨ص٣٨٢].

وربما عزز ذلك حمل بعض المفسرين " إنْ" على معنى "ما" النافية ، فكأن المعنى " ما كنت في شك فاسأل ، يعني : لا نأمرك بالسؤال لأنك شاك ، ولكن لتزداد يقيناً ، كما ازداد إبراهيم - عليه السلام - بمعاينة إحياء الموتى" [١ ج٢ ص٢٥٣].

وإن كانت " إنْ" بمعناها الظاهر وهو " الشرطية" فهي – كما يقول أبو حيّان – " تقتضي تعليق شيء على شيء ، ولا تستلزم تحقق وقوعه ولا إمكانه ، بل قد يكون ذلك في المستحيل عقلاً ، كقوله تعالى ﴿ قُلۡ إِن كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٞ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡعَٰبِدِينَ ﴾ (الزخرف : ٨١) ، ومستحيل أن يكون له ولد ، فكذلك هذا مستحيل أن يكون في شك...ولما خفي هذا الوجه على أكثر الناس اختلفوا في تخريج هذه الآية ". [٤٠ج٥ص١٩١]

وخلاصة هذا المعنى أنه - كما يقول القاسمي- "لا يفهم من هذه الآية ثبوت شك له صلوات الله عليه.. والسر في مثلها تكثير الدلائل وتقويتها ، لتزداد قوة اليقين ، وطمأنينة القلب ، وسكون الصدر " [٤١ج٩ص٨٠].

وقد كان طلب ذلك - كما ذكره البقاعي - " بعد الفطام عنه من أفعال الشك في الجملة ، فأريد صرف النفس عنه بالكلية ، ولو بالخطور في البال " [٤٤ج٩ص٢٠٤].

حقاً لم يكن الرسول ﷺ شاكاً ، ولا ينبغي له أن يشك ، وإنما – كما يقول سيد قطب –: " هذا التوجيه يشي بما كان وراءه من شدة الموقف وتأزمه في مكة بعد حادث الإسراء ، وقد ارتد بعض من أسلموا لعدم تصديقه ، وبعد موت خديجة وأبي طالب ، واشتداد الأذى على رسول الله ﷺ ومن معه ، وكل هذه ملابسات تلقي ظلالها على قلب رسول الله ﷺ ، فيسرّي عنه ربه بهذا التوكيد ". [٤٦ ، ج٣ص١٨٢٠ي

فإذا استبطأت النفس البشرية المؤمنة النصر الموعودة به ، ولم يبلغ اليقين غايته في فترة من الفترات ، لظروف وملابسة الأحوال من تعنت المكذبين ، وصور بعض من ينتسب إلى هذا الدين ، واشتداد الأذى والتضييق على أهله ، فإن النفس بطبيعتها البشرية يعتريها الهم والغم والضعف ، بل وشبه اليأس ﴿ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِ ﴾ (البقرة : ٢١٤).

ويؤكد هذا المعنى " للشك " ما ورد من أسلوب الاستفهام الإنكاري على من يرد في قلبه شك فيما لا مجال للشك فيه، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (إبراهيم: ١٠).

وذلك لغاية ظهوره.. فإن الفطرة شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعض الفطر شك واضطراب فيحتاج إلى النظر في الدليل الموصول إلى وجوده.." [٤١، ج١٠ ص١٤]

"وقصارى القول: أن هذه الإيحاءات في الدلالات الهامشية للألفاظ والعبارات قد عني بها النص القرآني أيما عناية، فما كان حسناً منها ومؤدياً بكل دقة للمعنى المراد توصيله للقارئ أو السامع، اختار له اللفظ المناسب الذي لا يمكن أن يقوم غيره مقامه، وما كان عكس ذلك اطرحه وأهمله ".

وقد ذكر الإمام الخطابي (ت٣٣٨هـ) في رسالته " إعجاز القرآن " أن مدار البلاغة في النص القرآني وإعجازه هو وقوع اللفظ في مكانه، فإذا أبدل فسد معناه، أو ضاع رونقه الذي يكون معه سقوط البلاغة. [٤٧، ص٢٩].

وقد سلكت الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) بكتابها " الإعجاز البياني للقرآن " هذا المعنى من حيث الجملة، وإن كان لها رأي أحياناً، ومثلها – أيضاً - الدكتور تمام حسان في كتابه " البيان في روائع القرآن".

فمما أوردناه من بعض الشواهد القرآنية التي استخدمت " الريب" تارة، و"الشك " تارة أخرى، وما أوردناه من معاني بعض تلك الشواهد، يرد علينا هذا الإشكال، وهذا التساؤل: هل " الريب" و "الشك" شيء واحد من حيث الدلالة والمعنى ؟ أو أن لكل واحد منهما دلالته الخاصة به؟ وإن كانت دلالتهما واحدة، فلماذا هذا التنويع في الاستخدام؟ بل هذا الجمع بينهما –أحياناً- في الآية الواحدة ؟

بل هذا الفرق بين نسبة ورود كل منهما، حيث وردت لفظة " الريب " - كما سبق- في ستة وثلاثين موضعاً، ووردت لفظة "الشك" في خمسة عشر موضعاً، نعم، قد يكون في بعضها كلفظة " الريب" مثلاً - مراعاة الفواصل أو رؤوس الآي أحد أسباب ذلك التنويع – والله أعلم، ومراعاة ما يعرف بالفاصلة القرآنية، أو رؤوس الآيات، عند غير واحد من العلماء، كالزركشي، والسيوطي - أحد أسباب ما يلفت له الإعجاز وأسرار القرآن الكريم (ينظر: ٣٠، ج٣ ص٢٧٤ و٤٨، ج٢ص٢٠و ٤٩ ص١١٤ و١٤ص٢٣٥)؛ لاسيما إذا كانت تلك اللفظة هي رأس الآية، وفاصلتها إلا أن هذا قليل بالنسبة إلى مالم يكن منها واقعاً كذلك.

وذلك كما في آيتي هود: ﴿وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (هود: ٦٢)، و﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ (هود: ١١٠)، وآية إبراهيم: ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (إبراهيم: ٩)، وآية سبأ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ (سبأ: ٥٤)، وآية غافر: ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ (غافر: ٣٤)، وآية فصلت ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ (فصلت: ٤٥) وآية الشورى ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ

مُرِيبٍ ﴾ (الشورى : ١٤)، وآية ق : ﴿ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ (ق : ٢٥)، فالفاصلة - مثلاً - في سورة " هود" تنتهي بحرف الباء تارة، وبحرف الدال، والذال، والراء، والزاي، والظاء، والقاف، والنون تارات أخر، وكل هذه الحروف - كما هو مقرر في علم الأصوات - مجهورة، ليس بينها مهموس، فجاءت الفاصلة متفقة من حيث هذه الصفة.

ومثلها - أيضاً - في سورة " إبراهيم" حيث انتهت الفاصلة بأحرف هي مجهورة: الباء، والدال، والراء، والظاء، واللام، والميم، والنون.

وكذلك في سورة "سبأ" : الباء، والدال، والراء، والظاء، والميم، والنون.

وفواصل سورة " غافر" - أيضاً - : الباء، الدال، الراء، اللام، الميم، النون.

وفي سورة " فصلت" : الباء، الدال، الراء، الزاي، الطاء، الظاء، الميم، النون.

وأيضاً في سورة "الشورى" : الباء، الدال، الراء، الزاي، اللام، الميم، النون.

وفي سورة " ق" : الباء، الجيم، الدال، الراء، الطاء، الظاء، فجاءت الفاصلة في كل ما تقدم بين حروف متقاربة من حيث الصفة.

وقد يكون لذلك التنويع سبب آخر يجمع إلى ذلك السبب، وهو مراعاة مقتضى المعنى، ومناسبة الآية، وسببها وظلالها، وذلك أن " الريب" — كما سلف- تردد، وقلق نفسي مع توجس خيفة وتهمة، فكأنه ظن سوء [٣٤ج٣ص١٧٣ و٢ج١٠ص٤٥١ و٢٩ ص٢٦٥ مادة شكك]، وشواهد ذلك ما أوردنا بعضه آنفاً من ذكر لبعض الآيات التي وردت فيها تلك اللفظة ومعانيها من خلال سياقاتها وظلالها ومناسباتها.

فـ "الريب" انضاف إليه معنى لا يكون مع " الشك"، لا ينبغي معه أن يحل محل ما لا يقبل هذا المعنى الزائد، ولا تفسر إحداهما بالأخرى إلا تجوزاً، أو من قبيل اشتراكهما بالمعنى العام، كما فعل كثير من العلماء، فيما اطلعت عليه من بعض مصنفاتهم؛ إذ جمعوا بين هاتين اللفظتين في المعنى، واشتراكهما في الدلالة الواحدة، فيما يبدو معه من خلال تلك النصوص التي نقلناها عنهم قبل ذلك، اتفاق هاتين اللفظتين في الدلالة اللغوية، المعجمية منها والوظيفية، الأمر الذي يجعلهما - عندهم - من الألفاظ المترادفة في العربية.

على أن هناك بعض العلماء الذين ألفوا في الفروق اللغوية أورد هاتين اللفظتين على أن لكل واحدة منهما معنى خاصاً تنفرد به عما تلتقي به مع أختها في المعنى العام، وهذا يعني أنهما تفترقان في الواقع اللغوي على اعتبار أو تصور آخر غير ما سبق.

ومن شبه المتفق عليه في الدراسات اللغوية الحديثة أن قياس درجة التطابق بين الدلالتين؛ الدلالة الاجتماعية المعجمية (المركزية)، والدلالة السياقية (الهامشية) من خلال استعمال الكلمة يؤدي إلى وضوح الفرق بينهما، ومن ثم الحكم عليها بأنها من المترادفات أولا .

فإن كان التطابق تاماً بين الألفاظ أو الكلمات، بحيث تقبل التبادل أو الاستعاضة بينها في أي سياق، فذلك يعني الترادف الحقيقي، وإن كان التطابق غير تام، بحيث يتفاوت استعمال الكلمة من سياق إلى آخر، فهذا يعني شبه الترادف. [٥٠ص١٣٢، و٥١ ص٥٠]

ونحن حينما نتدبر آي القرآن وعباراته، ومغايرة ألفاظه، والمراوحة بينها، نعي أن وراء ذلك أسراراً بيانية وإيحاءات دلالية، ولفتات إعجازية تدفع المتدبر والمتأمل إلى تتبعها، محاولاً الوقوف على شيء من فقه أساليبها.

وعليه فإنه - في نظري- قد لا يسوغ أن نفسر " الريب" بـ " الشك " أو العكس، أو أن نسوي بينهما في الدلالات من كل وجه، ونغفل أو نتجاهل ما بينهما من إلماحات ولطائف، وشواهد القرآن تومئ إلى تلك الإشارات والفروق الدقيقة في المعنى بين تينك اللفظتين، إضافة إلى أن الحس الراشد — كما يسميه الدكتور محمد أبو موسى [٥٢، ص٢٢١]، قد لا يقنع بهذا التفسير وهذه التسوية، بل لعل في أصوات هاتين اللفظتين ما يوحي بهذه الفروقات؛ إذ إن أصوات " الريب" كلها مجهورة تتناسب وجهر المرتاب بريبه والبوح به من غير إخفاء أو استحياء، وربما ظهر هذا التصاقب بين الأصوات والمعاني أكثر حينما نتأمل صفات كل حرف من أحرفها، " فالراء" صوت مكرر يتكرر ويتردد في مخرجه، والريب تردد وقلق متكرر، ثم جاء حرف المد الليني " الياء "، ليوحي باستمرار ذلك التردد والاتهام وكأنه يطاول ويمتد مع هذا المرتاب ولا يكاد يفارقه ولم يكتف بهذا التردد والمطاولة، وإنما صاحبهما إعلان وقلق في معنى حرف " الباء" المجهور المقلقل، وكأنه قد بلغ به القلق مبلغاً تتناسب وقلقلة هذا الحرف وإحكام غلق الشفتين معه استعداداً للدَّويِّ الناتجِ عن بيانه بالقلقلة.

وحين تقابل هذه المعاني لهذه الأصوات بمعاني أصوات " الشك" فإن ذلك يكون على الضد تماماً، فأصوات " الشك" مهموسة تتصاقب ومعناها الذي يوحي باستحياء من خالجه شيء من ذلك، وربما آثر عدم البوح به، لعدم قناعته ووثوقه بشكِّه، "فالشين " صوت مهموس شجري يدل على التداخل كما تداخل أفرع الشجر، فتتساوى الأمور عنده، كما تتساوى أغصان الأشجار، وتتداخل و " الكاف" - أيضاً - مهموس ينقطع صوته وينحصر في مخرجه، وكأن هذا الأمر بعد هذا التداخل الذي لم يهتد فيه صاحبه إلى يقين - وهو جاد في البحث عن الحقيقة - قد انتهى به إلى زوال هذا الشك، وانقطاعه الذي يتناسب مع صوت " الكاف" والشاك يصل - في الغالب- إلى هداية وبيان ثم إلى اطمئنان .

وقد سبق إلى مثل هذا التأمل في أصوات العربية وتصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني جهابذة من أئمة العربية على رأسهم قطب العربية ابن جني (ت٣٩٢هـ) في سفره العظيم "الخصائص" [٨ج٢ص١٤٥، ١٥٢، ١٦٨]، وهو جانب من جوانب تلمس أسرار هذه اللغة الشريفة التي اصطفاها الله تعالى بعلمه وحكمته على سائر اللغات، لتكون وعاء لأشرف دين وأسمى كتاب.

الخاتمة

خلاصة ما انتهى إليه البحث بعد التتبع والاستقراء لهاتين المادتين في سياقاتهما القرآنية، ودلالاتهما اللغوية جملة نتائج من أهمها:

١ – في الغالب الأعم يفسر العلماء " الريب" بـ " الشك" وليس العكس، وعليه: فكل " ريب" شك، وليس كل " شك " ريباً.

٢ – دلت المعجمات اللغوية على وحدة البيئة اللغوية لتينك المادتين، ولم أقف على من أشار إلى تنوع أو اختلاف اللغات في اللسان العربي فيهما.

٣ – يلزم مع " الريب" تهمة وخوف وقلق واضطراب، ولا يلزم شيء من ذلك مع " الشك "، وإنما هو مطلق التردد أو تساوي الأمرين مع حرص على الوصول إلى الحقيقة.

٤ – " الريب" من صفات الكافرين والمنافقين، ولا يسوغ وصف أهل الإيمان والإسلام بها، وربما جاز وصفهم في مرحلة بـ " الشك" أو " الظن" غير المقيدة بوصف " الريب"، فيما كان مشتبهاً عليهم قبل مقادحة العلماء، أو ما كان بمعنى الخطور بالبال، أو استعجال النصر أو نحو ذلك.

٥ – تعددت صيغ ومشتقات " الريب"، وفي ذلك إشارة – والله أعلم- إلى كثرة التردد وتنوع القلق والاضطراب على ما يتناسب ومعاني تلك الصيغ والمشتقات، في حين جاءت مادة "الشك" بصيغة واحدة هي صيغة "شك " المنكرة، إشارة – والله أعلم – إلى أنه ربما كان عارضاً لا يترسخ ولا يطاول، سرعان ما ينكشف له الأمر، وتظهر الحقيقة فيذعن خاضعاً ومسلماً دون تردد أو توقف.

٦ – أن " الريب" أقرب في معناه إلى القلق والخوف والتهمة منه إلى "الشك"، في حين أن "الشك" أقرب إلى معنى "الظن" منه إلى "الريب" لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾ (النساء: ١٥٧).

يقول ابن عاشور: " الظن في لغة العرب يطلق ويراد به الشك.." (٤٢ ج٦ص٢٢).

ولا يكون "الشك" بمعنى " الريب" إلا بقرينة من السياق والمناسبات أو بوصف بـ " الريب" يقيده ويصرفه إلى معناه، كما في قوله تعالى ﴿إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ (يونس: ١٠٤)، بقرينة شركهم، وعبادتهم غير الله، فهم يتخبطون في ريب الكفر والشرك.

وكما في قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ (سبأ: ٢١)، إذ قابل الشك - هنا - وهو الكفر بالآخرة - بالإيمان والتصديق بهذا اليوم.

وما أُكِّد وقُيِّد بـ "الريب" أيضاً في نحو قوله تعالى ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ (هود: ٦٢، ١١٠، وكما في إبراهيم: ٩)، ولم يوصف "الريب" قط بـ "الشك".

٧ – قد يعبر بـ " الشك" ولا يراد به حقيقة معناه، وإنما تجوزاً، يراد به الترقي في درجات اليقين، وتثبيت القلوب بالاطمئنان ﴿ فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ ﴾ (يونس: ٩٤)، والخطاب لخير خلقه وأكملهم إيماناً محمد عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.. وأما "الريب" فإنه يعبر به مراداً به معناه الحقيقي الذي ينطبق على موصوفه في الآيات القرآنية.

٨ – إذا حادت النفوس عن فرطتها تخبطت في الشك والريب، فإذا آمنت ووقر الإيمان في قلوب أصحابها، اختفى " الريب"، بل زال، وربما طرأ عليها في بعض فتراتها شيء من " شك"، فتسارع إلى التخلص منه، وحلّه بالتعلم والبحث والسؤال، ولا يمكن أن يصل بها هذا "الشك" إلى مرحلة "الريب" إلا أن تكون أسلمت – ظاهراً - ولم يخالط الإيمان بشاشتها، فإنه قد يعتريها ريب، فتنقلب - والعياذ بالله - وتنتكس ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ﴾ (التوبة: ١١٠).

٩ – "الشك"ضرب من الجهل، وإن كان أخص منه، لأن الجهل افتقار إلى العلم بالنقيضين أساساً، و"الشك" افتقار إلى هداية في ترجيح أحدهما وتصويبه، فكل شك جهل، وليس العكس، في حين أن " الريب" ضرب من العناد والتكذيب، والمماراة، وإن بانت في أمره الحقائق، وقويت في إزالته الحجج والبراهين ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (النمل: ١٤)، ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ (البقرة: ١٤٤)، ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ (البقرة: ١٤٦).

وعليه؛ فإني أستوحي من استخدام النص القرآني لهاتين اللفظتين أن كلمة " الريب" ذات مدلولات أوسع، وأبعد من مدلول كلمة "الشك"، ذات المدلول الواحد، ذي الدلالة الظاهرة القريبة.

وفيما تقدم تلمس الخصوصية لدلالة كلّ لفظة، وهذا ما يجعل النفس تميل إلى القول بأن هاتين اللفظتين ليستا مترادفتين ترادفاً تاماً، بحيث يحملان الدلالة نفسها في سياقاتهما المختلفة، بل هما أقرب إلى شبه الترادف، أو ما يعرف بالترادف غير التام، ذلك أنه ربما حدث بينهما تقارب في المعنى إلى درجة الإلباس، دون أن يتحدا فيه.

وإذا كان النحاة يقررون فروقاً بين دلالات الأدوات كأسماء الإشارة، وهي أدوات ليست لها المرونة الاشتقاقية أو الحركية التصريفية، فإن ادعاء الترادف بين الجذور المرنة ينبغي أن يخضع لبحث وتدقيق.

وبعد؛ " فلعلَّ العمر لو أنفق في استكشاف أسرار القرآن وما يرتبط بمقدماتها ولواحقها، لانقطع العمر قبل استيفائها، وما من كلمة في القرآن إلا وتحقيقها محوج إلى مثل ذلك.. وأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ولو كان البحر مداداً والأشجار أقلاماً لنفد البحر قبل أن تنفذ أسرار القرآن" [٥٣ ج٣ص١١٣].

وأخيراً أسأل الله أن يهدينا إلى أفضل السبل، ويزيدنا علماً، ويجنبنا الزلل والخطل، إنه ولي ذلك والقادر عليه، والحمد لله أولاً وآخراً.

المراجع والمصادر

[١] الزمخشري، محمود بن عمر. *الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل*. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر.

[٢] ابن منظور، محمد بن مكرم. *لسان العرب*. بيروت: دار لسان العرب.

[٣] الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب. *القاموس المحيط*. بيروت: دار الفكر.

[٤] الزبيدي، محمد مرتضي. *تاج العروس في معرفة القاموس*. مصر: المطبعة الخيرية، ط١، ١٣٠٦هـ.

[٥] سيبويه، عمرو بن عثمان. *الكتاب*، تح: عبدالسلام هارون. مصر: المطبعة المصرية العامة للكتاب. ط٢، ١٩٧٧م.

[٦] المبرد، محمد بن يزيد. *ما اتفق لفظه واختلف معناه*. تح: عبدالعزيز الميمني. القاهرة: المطبعة السلفية.

[٧] ابن فارس، أحمد بن فارس. *الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها*. تح: مصطفى الشويمي. مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر ١٩٦٤م.

[٨] ابن جني، عثمان بن جني. *الخصائص*. تح: محمد النجار، القاهرة: دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٧١هـ.

[٩] أنيس، إبراهيم أنيس. *في اللهجات العربية*. ط٤.

[١٠] نجا، إبراهيم محمد. *اللهجات العربية*. مطبعة السعادة ١٣٩٦هـ.

[١١] ابن عاشور، الطاهر بن عاشور. *المترادف في اللغة العربية*. مجلة مجمع فؤاد الأول للغة العربية، ج٤ شعبان (١٣٥٦هـ)، ٢٢٢.

[١٢] السكاكيني، خليل السكاكيني. *الترادف*. مجلة مجمع اللغة العربية. القاهرة ج٨ (يناير ١٩٥٠م) ٣٠٧.

[١٣] المبارك، محمد المبارك. *فقه اللغة وخصائص العربية*. بيروت: دار الفكر، ط٦، ١٣٩٥هـ.

[١٤] بنت الشاطئ، عائشة عبدالرحمن. *الإعجاز البياني للقرآن الكريم*. مصر: دار المعارف.

[١٥] ابن الأثير، نصر الله بن محمد. *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر*. تح: محمد محي الدين عبدالحميد. مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٨هـ.

[١٦] ابن العربي، أبو بكر بن العربي. *تفسير ابن العربي*.

[١٧] الصالح، صبحي الصالح. *دراسات في فقه اللغة*. بيروت: دار العلم للملايين. ط٦، ١٩٧٦م.

[١٨] أمين، بكري شيخ. *التعبير الفني في القرآن*. دار الشروق، ط٢.

[١٩] شرف، حفني محمد. *إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق*. مصر: مطابع الأهرام التجارية، ١٣٩٠هـ.

[٢٠] عامر، فتحي أحمد. *فكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم*. القاهرة، ١٣٩٥هـ.

[٢١] السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن. *المزهر في علوم اللغة وأنواعها*، تح: محمد أحمد جاد وزملائه. دار إحياء الكتب العربية، ط٤.

[٢٢] العسكري، أبو هلال العسكري. *الفروق في اللغة*، بيروت: دار الآفاق الجديدة، ط٢، ١٩٧٧م.

[٢٣] الآمدي، أبو الحسن الآمدي. *الإحكام في أصول الأحكام*. تعليق: عبدالرزاق عفيفي. تصحيح: عبدالله بن غديان، وعلي الصالحي. الرياض: مؤسسة النور للطباعة والتجليد. ط١، ١٣٨٧هـ.

[٢٤] الأسنوي، جمال الدين الأسنوي. *نهاية السول في شرح منهاج الأصول*. القاهرة: جمعية نشر الكتب العربية.

[٢٥] ابن حنبل، أحمد بن حنبل. *المسند*. بيروت: دار صادر.

[٢٦] البخاري، محمد بن إسماعيل. *صحيح البخاري ومعه فتح الباري*. القاهرة: المطبعة السلفية ١٣٨٠هـ.

[٢٧] مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري. *صحيح مسلم بشرح النووي*. بيروت: دار الفكر، ط٢، ١٣٩٢هـ.

[٢٨] ابن تيمية، عبدالحليم. *مقدمة في أصول التفسير*. تح: عدنان زرزور. بيروت: مؤسسة الرسالة. الكويت: دار القرآن الكريم، ط٢، ١٣٩٢هـ.

[٢٩] الأصفهاني، الحسين بن محمد الراغب. *المفردات في غريب القرآن*. مصر: مكتبة الأنجلو المصرية.

[٣٠] الزركشي. محمد الزركشي. *البرهان في علوم القرآن*. تح: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط٢.

[٣١] الأزهري، محمد بن أحمد. *تهذيب اللغة*. تح: عبدالله درويش، مراجعة محمد النجار. مصر: الدار المصرية للتأليف والترجمة.

[٣٢] ابن فارس، أحمد بن فارس. *مجمل اللغة*. تح: زهير سلطان. بيروت: مؤسسة الرسالة. ط١، ١٤٠٤ هـ.

[٣٣] الجوهري، إسماعيل بن حماد. *تاج اللغة وصحاح العربية*. بيروت: دار الحضارة العربية.

[٣٤] ابن فارس، أحمد بن فارس. *مقاييس اللغة*. تح: عبدالسلام هارون. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٦هـ.

[٣٥] ابن الأثير، مجد الدين المبارك بن الأثير. *النهاية في غريب الحديث والأثر*. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

[٣٦] الفيروزآبادي، محمد بن يعقوب. *بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز*. تح: محمد النجار، وعبدالعليم الطحاوي.

[٣٧] الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة. *سنن الترمذي*، تح: إبراهيم عوض. مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، ط١، ١٣٨٥هـ.

[٣٨] النسائي، أحمد بن شعيب. *سنن النسائي بشرح السيوطي*، وحاشية السندي. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

[٣٩] الرازي، الفخر الرازي. *التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)*. طهران: دار الكتب العلمية، ط٢.

[٤٠] أبو حيان، محمد بن يوسف. *البحر المحيط*. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٣٩٨هـ.

[٤١] القاسمي، محمد جمال الدين. *محاسن التأويل*. بيروت: دار الفكر، ط٢، ١٣٩٨هـ.

[٤٢] ابن عاشور، الطاهر بن عاشور. *التحرير والتنوير*. تونس: الدار التونسية للنشر ١٩٦٦م.

[٤٣] الألوسي، محمد شكري. *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*. بيروت: دار إحياء التراث.

[٤٤] البقاعي، برهان الدين البقاعي. *نظم الدرر*. مكة: أم القرى للطباعة والنشر، ط١، ١٣٨٩هـ.

[٤٥] القرطبي، محمد بن أحمد. *الجامع لأحكام القرآن*. مصر: دار الكتب المصرية. دمشق: دار القلم ١٣٨٦هـ.

[٤٦] قطب، سيد قطب. *ظلال القرآن*، بيروت، القاهرة: دار الشروق ط١٠، ١٤٠٢هـ.

[٤٧] الرماني، والخطابي، والجرجاني. *ثلاث رسائل في إعجاز القرآن*. تح: محمد خلف الله. ومحمد زغلول سلام. مصر: دار المعارف.

[٤٨] السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن السيوطي. *الإتقان في علوم القرآن*، ط٣، ١٣٧٠هـ.

[٤٩] العامري، حميد أحمد. *التقديم والتأخير في القرآن الكريم*. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة ١٩٩٦م.

[٥٠] خليل، حلمي خليل. *الكلمة دراسة لغوية معجمية*. الإسكندرية: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠م.

[٥١] حيدر، فريد حيدر. *علم الدلالة دراسة نظرية وتطبيقية*. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية ١٤١٩هـ.

[٥٢] أبو موسى، محمد أبو موسى. *البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري*. القاهرة: دار الفكري العربي.

[٥٣] طاش كبري زاده، أحمد مصطفى. *مفتاح السعادة ومصباح السيادة*. تح: كامل بكري، وعبدالوهاب أبو النور. القاهرة: دار الكتب الحديثة ١٩٦٨م.

The Language Vocation in Synonyms of the Holy Quran in the Two Words "Doubtness and Skepticism"

Ali bin Abdullah Al-Rajhi
Assistant professor of linguistics in the Arabic language
Al-Qassim University
Ali-Arj@hotmail.com

(Received 28/11/1428H.; accepted for publication 7/3/1429H.)

Abstract. This research deals with one of Arabic aspects on semantical level , it is linguist synonymy in The Holy Quran through two vocabularies , " Suspieion "&" Doubt", in order to prove & illustrate some of linguistic inimitability which is one of miraculous of The Holy Quran , however , through linguistic inimitability , Allah has challenged people of eloquence & rhetoric , the speculator on the composition / versification & signification of The Holy Quran will find this linguistic inimitability in quranic words literally & semantically , the more contemplation on miracle reality the more you become sure that the main miracle is linguistic inimitability , one of the words of this linguistic is: quranic miraculous through vocabularies selection to set structure & this meet synonymy case in one aspect , as the language & style of The Holy Quran is supernatural to language rules , & this is the concept of linguistic inimitability , person may stand before quranic word , & his fancy / think & his indulgence in comprehension of special semantics lades him to imagine synonymy among number of words , for this reason this research has been come to illustrate this fact , & to remove this limited vision & refund this fancy , as through quiet contemplation , hearing speechless whispering , understanding the meaning of each word , its suggestion in the context , realizing the reason of its revelation , acquaintance with occasions of this words & realizing some of other information that must be associated with comprehension of quarnic rhetoric , its become clear to the person that if he searches all linguistic dictionary for finding alternative to quranic word in its specific place , he will discover that ih is impossible.

MY intention , if Allah has prolonged my life, to make this research as a Nucleus to a great & long research in words of synonymy in The Holy Quran , speculative study in the aspects of linguistic inimitability ,& it will be as linguistic explanation for synonymy examples in the Holy quran